# نحو منهج سنني في تحليل القصص النبوي
## (قصة الملك والساحر والراهب والغلام أنموذجا)

Towards a Sunni Analytical Approach of the Prophetic Story Telling
(The Story of the King, the Magician, the Monk and the Boy as a Model)

**الطالب الباحث: نجم الدين منار**
**المشرف: أ.د/ محمد عبد العظيم بنعزوز**
**جامعة ابن طفيل – القنيطرة (المغرب)**
nejmeddine.2022.manar@gmail.com

**تاريخ الإرسال: 2022/02/10** **تاريخ القبول: 2022/05/28**

**ملخص:**

هذه الدراسة نظرة سننية لإحدى القصص النبوية، مادام حال الأمة لا يستقيم بدون وعي سنني، خاصة لما لها من أثر في النفس والفكر الإنسانيين تربية وتشذيبا وتذكيرا بالله كما أنّ اعتماد هذا المنظور دعوة صريحة لترسيخ الوعي السنني في عقل المسلم، خروجا من وهدة التخلف واسترداد الفاعلية والقيادة والتغيير الشامل الذي يحيي الأمة ويستشرف مستقبلها. فإذا كان النظر السنني عزة بالله، فإنّ غياب أو تغييب هذا النظر عن عقل المسلم اليوم مروق من الدين وانسحاب من الدنيا.

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تقرّب مفهوم القصة النبوية من حيث هي بناء متكامل كما محاولة جادة لتطبيق المنظور السنني في هذا المتن.

**الكلمات المفتاحية:** القصص النبوية، السنن الإلهية، المنظور السنني، الوعي.

***Abstract:***

This study represents a Sunni view of one of the prophetic stories, as long as the state of the nation is not upright without a Sunni awareness since it has an impact on both human soul and thought via educating, trimming and reminding of God. The adoption of this perspective is an explicit call to establish Sunni awareness in the Muslim's mind and to get out of this state of backwardness and in

response to the effectiveness of leadership and global change that revives the nation and anticipates its future. If the Sunni view is a consolation of God, then its absence or removal from the Muslim mind is going astray and withdrawing from the world. The importance of this study stems from the fact that it approximates the concept of the prophetic story in terms of an integrated construct, as well as a serious attempt to apply the Sunni perspective to this text.

***keywords**:* prophetic stories, divine laws, Sunni perspective, awareness.

**مقدمة:**

يتناول هذا المقال أحد أشكال التعبير في الأحاديث النبوية الشريفة، وهي شكل القصة، لكن هذه المرة وقوفا باستحضار المنظور السنني فيها، خاصة أنّه من المفاهيم التي أفرد لها القرآنُ الكريم مساحاتٍ تعبيريةً واسعة، يليه في ذلك الحديث النبوي الشريف.

وتعود أهمية هذا البحث في كون فقه السُّنن، إرساء لحركة الإنسان في حياة ملؤها التنازع والتصارع، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في مقدّمته: "التنازع عنصرٌ أساسيٌّ من عناصر الطبيعة البشرية، فكلُّ إنسانٍ يحبّ الرئاسة، وهو لا يتردّد عن التنازع والتنافس إذا وجد في نفسه القدرة على ذلك...".

وما دام القصص النبوي صورة مصغرة لحياة قربها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الأمم السابقة منهم، فلابد من الالتفات إليها متسلحين بوعي سنني يسعف في استجلاء الظاهر من القصّ والمضمر.

في خضم بحثي رافقني سؤالان اثنان:

- هل تستجيب القصة النبوية لخصائص القصة العربية؟
- ثم هل يسعف المنظور في مقاربة عناصر القصة النبوية؟

لتحليل قصة "الملك والساحر والراهب والغلام" تحليلا سننيا وافيا، لابدّ من التحديد المفاهيمي لما يلي: (مفهوم القصة النبوية لغة واصطلاحا وفنيا، ثم السنن النبوية وتحديدها اللغوي والاصطلاحي، مع الإشارة لأهمية دراسة السنة في واقع الناس. وأخيرا الوقوف عند تجليات المنظور السنني في قصة الغلام والراهب والساحر).

**أولا مفهوم القصة:**

**1- القصة لغة:**

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس قوله:" القاف والصاد: أصل صحيح، يدلّ على تتبع الشيء. من ذلك قولهم قصّ الشيء يقصه قصصا، وقصصا، بمعنى تتبعه لأمر وغاية ينتهي إليها، من ذلك: التتبع، ومن ذلك قولهم: اقتصصت الأثر إذا تتبعته"[1]، ومنه قوله تعالى في حديث أم موسى مع أخته، حين التقطه آل فرعون ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]، أي تتبعي أثره لتعلمي خبره.

وفي قصة موسى عليه السلام- مع فتاه، وقد ذهبا للبحث عن الخضر امتثالا لأمر الله، وبدا لهما أن يرجعا إلى حيث انسل الحوت من المكتل قال تعالى:" ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[3]، والمقصود أن موسى وفتاه رجعا من الطريق الذي سلكاه يتبعان الأثر ويقصانه حتى ينتهيان إلى المكان المنشود لهما، وقد يأتي القص" بمعنى البيان ومنه قوله سبحانه وتعالى في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[4] أي: نبين لك أحسن البيان. والقاص، من يأتي بالقصة"[5]. وأصل القص عند العرب تتبع الأثر، قال ابن سيده: "قص آثارهم يقصها قصا وقصصا وتقصصها تتبعها بالليل، وقيل: هو تتبع الأثر أيّ وقت كان"[6].

ويراد بالقصة الخبر، ورواية الأمر والحديث، وهذا ما ذهب إليه ابن منظور في قوله: "والقصة الخبر، وقص علي خبره يقصه قصا وقصصا: أورده، والقَصَصُ - بفتح القاف - الخبر المقصوص، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، والقِصَصُ — بكسر القاف - جمع القصة التي كتب، وتقصص الخبر، تتبعه، والقصة الأمر والحديث، واقتصصت الحديث، رويته على وجهه، وقصّ عليه الخبر قصصا، والقاص هو الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها"[7].

بعد تتبع كلّ هذه التعريفات اللغوية للقصة: يتبين أنّ القصة تعني الحكاية عن خبر وقع في زمن مضى وانقضى القصد منه إفادة عبرة وعظة. وأصل أحداثها أن تكون مرتبة ترتيبا سببيا منطقيا، وتدور حول موضوع عام من التجربة الإنسانية، فجوهر القصة هو الحياة بمختلف تجلياتها البشرية.

**2- القصة اصطلاحا:**

القصة في الاصطلاح الأدبي المتداول لم تعرف مدلولا محددا، فتستعمل أحيانا: للدلالة على عناصر الفن القصصي عامة، رواية كانت أو أقصوصة أو حكاية أو ونادرة أو غيرها...، وأحيانا أخرى تستخدم "للدلالة على نوع من الفن القصصي لا يطول ليبلغ حدّ الرواية، ولا يقصر ليقف عند حدّ الأقصوصة"[8].

يقول طاهر حجار في كتابه "الأدب والأنواع الأدبية": "من الصعب أن نعطي تحديدا شاملا للقصة بحيث نفهم كلّ إمكانيات هذا النوع الأدبي الذي لم يثبت بعد، وفعلا ما هو الفرق بين الرواية والقصة، والقصة القصيرة ..."[9].

ولأنّ المفهوم عصي على التحديد فإنّ جميع التحديات تبقى قاصرة في حصر مفهوم القصة، وفي هذا الصدد يحدثنا عز الدين إسماعيل في كتابه "الأدب وفنونه" قائلا: "لعلنا لا نجاوز الحقيقة عندما نزعم أنّ عدم وجود تعريف محدد لمصطلح (القصة القصيرة) هو أهم الأسباب التي أوجدت الاختلاط بين القصة القصيرة وغيرها من الأنماط الأدبية"[10].

**3- المفهوم الفني للقصة النبوية:**

إنّ للقصة بالغ الأثر في النفس والفكر الإنسانيين، تربية وتشذيبا. ومن أجل ذلك فقد اتخذها القرآن وسيلة ناجعة من وسائل الدعوة والتذكير والتوجيه إلى عبادة الله – عز وجل- وهو سبحانه قصّ على رسوله صلى الله عليه وسلم أحسن القصص وأصدقها في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. "ولما كان البيان النبوي والقصص النبوي خاصة امتدادا وتفصيلا لمجمل القرآن الكريم وشرحا لمشكله. كان لهذا النوع الأدبي فيه نصيب متميز، يعمق به النبي – صلى الله عليه وسلم- طائفة من المفاهيم والقيم التي تعدّ من المسائل الكبرى في النماذج الكلية من حياة الإنسان"[11].

ومادام المنطلق واحدا والوسيلة واحدة، فإنّ النتيجة ستكون متطابقة ومهما اختلفت أشكال العرض. فكلاهما يؤدي الغرض نفسه، الغرض الديني التربوي. الذي يهدف إلى بناء صرح الإيمان. وإبلاغ الدعوة وتثبيتها في قلوب المؤمنين. وقد خضعت القصة النبوية في موضوعاتها وطريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض والأهداف الدينية، هذا الخضوع

للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها، فكانت في ذلك متبعة لمنهج القصة القرآنية ولنسق البيان القرآني كله، فقد لوحظ أن "الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية"[12].

وعلى هذا كان للقصص النبوي بيان مميز وأسلوب مخصوص إبلاغا لرسالة الدعوة المحمدية وتوسيعا لمدارك المتلقين في فهم سنن الله والاعتبار بها. فمقاصد القصص النبوي هي من تملي الأسلوب والطريقة كما هو شأن القصة القرآنية تماما، حيث إنّ "المقاصد التي يرمي إليها القرآن هي التي تملي الأسلوب والطريقة وهي التي من أجلها يسلسل القرآن الأحداث ويربط بينها برباط من العاطفة والوجدان"[13].

ولمّا كان البيان النبوي متأثرا في أهدافه وأساليبه بالقرآن الكريم كانت هي إحدى وسائله المتبعة. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من سلك مسلك القرآن الكريم وترسم خطاه حيث اتخذ من القص وسيلة لبلوغ الغرض الديني، فالقصة النبوية تحقق غرضا دينيا –وهي الغاية الأولى– وآخر أدبيا؛ فهي إقناع للعقل وإمتاع للعاطفة بأسلوب حكيم هادف.

ومفهوم القصة النبوية لا يخرج عن مفهوم القصة كما عرفها العرب وكما جاءت في القرآن الكريم، وهو تعقب مسار الأحداث الماضية وإبراز جانب العبرة فيها، فهي تتناول آثار الماضين وأحداث الأولين سواء أكانوا من الأنبياء أم من أقوامهم مع التحديد الزماني والمكاني. ونطلق اسم القصص النبوي على سلسلة القصص التي وردت مرفوعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سردت في حضرته فأقرّها، وزاد عليها تعليقا، ومعظمها تمثيليا يساق في شكل أمثال – وقصصا أخرى من عالم الغيب[14].

ونختصر القول في تعريف القصة النبوية فنقول: "إنها مجموعة أحداث مرتبة ترتيبا سببيا تدور حول مواضيع إنسانية شتى جوهرها تصوير الحياة بما فيها من نماذج بشرية وتحليل أحاسيسها ومعرفة نفسياتها وتشريحها، سيقت لتحقيق أغراض دينية بحتة كإثبات الوحي والرسالة والبعث، وتعميق العقيدة في النفوس وتبصير العقول، حيث جاءت مفسرة لكل ما جاء في القرآن الكريم، ثم إنّ حبّ البشر للاستطلاع يجعلهم يفضلون سماع كلّ ما هو في قالب قصصي يشد سماعهم، إضافة إلى تعلق الناس فطريا بماضيهم وتشوقهم إلى سماع أخبار القرون الخالية والاستفادة من تجارب الأولين. القصة النبوية بعيدة كل البعد عن

القصة الأدبية الفنية التي وضع لها الأدباء عشرات القواعد الفنية في البناء وهذا هو الديدن الذي ينبغي أن يلتفت إليه الدارس، من حيث هناك تمايز من حيث الشكل والمصدر والغاية والمقصد. فهي ليست للمتعة ولا للتذوق الأدبي المجرد، ولا غرابة في ذلك، فمصدرها خاص وهدفها متفرد عن مثيلتها الأدبية الفنية التي قوامها الخيال السابح والتوهيم والتخييل، في حين أنّ القصة النبوية مصدرها الوحي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[15].

ومن هنا ندرك أهمية هذا اللون من البيان النبوي الذي حرص الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يجعله أسلوبا من أساليب إبلاغ الدعوة الإسلامية، نسج صدق خالص وعصارة حقيقة صافية. لا تشوبها شائبة، فلا تزييف ولا تخييل ولا تحريف.

**ثانيا/ مفهوم السنن:**

1- **السنن في اللغة:** السنن جمع سُنة، وهي من سنَّ يسُنُّ سناً وهي الطريقة والسيرة والمثال ... وعلى هذا النهج جاءت أقوال علماء اللغة، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: ما قاله ابن فارس في كتابه مقاييس اللغة: "سن السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم سَنَنْتُ الماء على وجهي أسُنُّهُ سَنًا، إذا أرسلته إرسالا، ومما اشتقَّ منه السُنَّة، وهي السيرة. وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيرته. من ذلك قول الهذلي:

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنت سِرْتَهَا *** فأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَنْ يسيرُها

وإنما سمِّيت بذلك لأنها تجري جريا، ومن ذلك قولهم: امض على سَنَنِك وسُنَنِك أي وجهك. وجاءت الريح سَنَائِنَ، إذا جاءت على طريقة واحدة"[16]، وقريبا من ذلك ما ساقه الراغب في مفرداته قوله: "جمع سنة، وسنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته ... فتنبيه أن فروع الشرائع– وإن اختلفت صورها – فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس، وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره"[17].

وجاء في لسان العرب لابن منظور: "سنّ الشيء يسنه سنا ... وسنّ الله سنة أي بيّن طريقا قويما ..."[18]. وجاء في تفسير المنار أنّ "السنن جمع سنة وهي الطريقة المعبدة والسيرة

المتبعة أو المثال المتبع، قيل إنها من قولهم: سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنّه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد"[19].

**2- السنة في الاصطلاح:**

يأتي مفهوم السنة اصطلاحا تبعا لمجالها التداولي، فعند أهل الحديث تعرف باعتبارها "كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية"[20]، أمّا عند الأصوليين فالسنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في ترتيب الأدلة الشرعية.

أما من حيث التناول التفسيري فقد انقسم مفهوم السنة إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** وتمثله التعريفات الخاصة بالسنن الاجتماعية وقد نالت الحصة الأوفر من الاهتمام. نكتفي هنا بقولين: عرف شيخ الإسلام ابن تيمية السنة بكونها: "العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار"[21]، في حين يعرف سيد قطب السنة باعتبارها "النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله الطليقة"[22].

ومنه نخلص أن تعريف السنن الاجتماعية لا يخرج عن كونها طريقة الله تعالى في معاملة البشر تبعا لسلوكهم وأفعالهم، فهي قانون عام مطرد ثابت وشامل.

**القسم الثاني:** وتمثله التعريفات الخاصة بالسنن الكونية، وهي بالمصطلح القرآني: الآيات: وفي هذا الصدد نورد تعريفا لمحمد أحمد الغمراوي حيث عرف السنن الكونية أنها: "النظم التي فطر الله عليها الخلق، وما اشتملت عليه النظم أو ما اتصل بطبائع الأشياء وخصائصها وعلاقاتها بعضها ببعض"[23]. أما الدكتور أحمد محمد كنعان فيعرف السنن الكونية بكونها: "مجموعة من القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها"[24].

وإجمالا فالسنن الكونية هي مجموعة القوانين التي تحكم الكون، يستفيد منها الإنسان فيسخرها في مسيرته العمرانية.

**القسم الثالث:** وهي تعريفات تجمع بين السنن الكونية والاجتماعية، وهي ما نسميها السنن الإلهية. ومن التعريفات التي تناولت هذا النوع من السنن نجد تعريفا للدكتور حسين شرفه: "السنن الإلهية: مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة والمطردة التي تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ في نظام دقيق ترتبط فيه المقدمات سلبا وإيجابا بالنتائج بمقتضى حكمة الله تعالى وعدله"[25]. زاد الدكتور رشيد كهوس تفصيلا في تعريف السنن الإلهية فعرّفها بكونها: "إرادة الله الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، ووعوده الحقة، وحكمه في أفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد من المعاش إلى المعاد"[26].

**ثالثا/ أهمية دراسة السنن الإلهية والوعي بها:**

لأنّ السنن شغلت حيزا هاما من آي القرآن الكريم، من حيث القصص والأمثال وآيات الأسباب والمسببات، والدعوة إلى السير في الأرض والاعتبار بمن سبق، كلّ ذلك لم يكن فضلة من القول بل دليلا قاطع على أهميتها. وفي هذا الصدد اعتبر الدكتور عبد الكريم زيدان معرفة السنن الإلهية والإحاطة بها ضرورة شرعية قال: "فيتحصل من ذلك أنّ معرفة السنن جزء من الدين، وأنّ هذه المعرفة ضرورية ومن الواجبات الدينية لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، بذلك ننجو مما حذرنا الله منه ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين"[27].

ومن فضائل العلم بالسنن الإلهية أنها سبيل تنمية الحياة وتوجيهها تسخيرا وعمارة واستخلافا. **و**تعود معرفة السنن الإلهية لدواع مختلفة منها:

- **دواعي حضارية:** فمعرفة السنن تحمل مقومات النهضة وإدراك المقصد، فالسنن توجيه لنا حتى نسخر الكون خدمة وتيسيرا وإعمارا للأرض. وتحصيلا لوسائل ذلك وتحصينا لمسيرتنا الحضارية. فبمعرفة السنن نفهم أحداث التاريخ ونأخذ العبرة بمن سبق، فنكون بذلك أكثر رسوخا في فهم الواقع، متجاوزين سبيل الانتكاسة مدركين أسباب التغيير والارتقاء.
- **دواعي معرفية:** مادامت معرفة السنن الإلهية تشغل حيزا كبيرا من القرآن الكريم فهي دعوة صريحة لدراسة واستنباط هذا العلم. خاصة أنّ معرفتها من الدين، لا يعلو عليه إلى العلم بالله فمعرفة السنن طريق دالة على الله تعالى.

- **دواعي وظيفية:** وتعود أهمية السنن هنا إلى حسن استنباط النتائج لنبني عليها علوما يقينية وخلاصات صارمة دقيقة تقلّ أخطاؤها وتتقلص ليسهل تفاديها، معرفة تربط الأسباب بالنتائج والمقدمات بالمحصلات.

- **ملخص قصة الملك والساحر والراهب والغلام:**

ساق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قصة الساحر والغلام والراهب والملك، لدروسها العظيمة في حياة الصحابة الكرام ومن يأتي بعدهم تعليما وتوجيها وتثبيتا.

تبدأ القصة بالإخبار عن ملك كان له ساحر، وقد كان هذا دأب الملوك قديما لإخضاع الناس وتثبيت العروش، بل وجعل الملوك آلهة من دون الله. ومادام السحر لا ينبري له غير نبيه، فقد جاء اختيار الغلام. وكان في طريق الغلام إلى الساحر راهب، كان الغلام يقعد لسماع كلام الراهب. احتار الغلام في الاختيار بين النهجين: سبيل الساحر أو الراهب. وكانت وسيلته للترجيح، حين وجد دابة عظيمة حبست الناس، فدعا الله أن يقتل الدابة إن كان أمر الراهب هو الأحب إلى الله. فقتلت، هنا تبين للغلام أمثل السبيلين فأخبر بأمره الراهب، وقد كان من جانب الراهب أن يوصي الغلام، لأنه سيتجاوز الدعوة الهادئة ويخرج إلى الناس وفي ذلك ابتلاء، كما التمس منه أن يكتم أمره ولا يدل عليه.

وقد كان من كرامة الغلام أن يبرئ الأكمه والأبرص. واتخذها سبيلا لدعوة الناس إلى دين الله فهو الشافي، فيدعوا لهم إن هم آمنوا.

وممن شفي على يديه جليس الملك الذي ارتد بصيرا. وبعد أن تبين للملك أن جليسه قد اعتنق دينا آخر يهدد ملكه ويؤذن بزوال سلطانه عذبه حتى دلّ على الغلام.

تتبع الملك نسج الفتنة فعذب الغلام حتى دلّ على الراهب، فلما آنس الملك من الرجلين، الراهب والجليس، رشدا وإيمانا وثباتا، نشرهما نصفين فانخرطوا بذلك في سلك الصابرين الصادقين المحتسبين وكان الملك متقدّم الظَلمة البغاة المتجبرين.

حاول الملك أول الأمر استمالة الغلام طمعا أن يكون من أركان الدولة لما يتميز به من صفات، وبعد محاولة رميه من قمة شاهقة، ثم وسط البحر، لم تفلح زبانية الملك فكان الغلام يأتيه متحديا، ومن خلال سلوكه هذا كانت الرسالة موجهة للناس أنّ الذي قذف

في قلبه الشجاعة واليقين هو الله. فالله أكبر مما صنع ويصنع ومما يخاف ويحذر. فلما ثبت عجز الملك عن قتل غلام، وهو الذي ادعى الربوبية، جاء توجيه الغلام. للملك أن "يجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني..."[28].

هنا استطاع الملك أن يقتل الغلام بعد أن رسم له طريق القتل دون أن يحيد عنه، وهو بذلك قد كسر حاجز مواجهة الطغاة فعلم الناس أنّ الخوف على الحياة تضييع للمطالبة بالحق والصدع به. وقد كان الدرس بديعا والرد سريعا، فقد وقع ما كان يحذر الملك، آمن الناس ولم تعد المخاوف تثنيهم عن التعبير عن أمانيهم. هنا جنّ جنون الملك فخد الخدود وأقحم فيها كلّ من أصر على الدين الحق. وهو لا يعلم أنهم اختاروا نار الدنيا اتقاء عذاب جهنم، وقد جاء نطق الرضيع لأمه التي ترددت في اقتحام النار آية تثبت للمؤمنين. وقد جاء الإخبار عن هذه القصة في سورة البروج.

**بعض فوائد الحديث الشريف:**

- يقيض لدينه من ينصره، وقد كان الغلام مثالا للعبد الضعيف أمام تجبر الملك الطاغية لكن العاقبة لمن اتقى.
- اختار الملك الغلام واصطفاه على عينه تثبيتا لعرشه، لكن اختيار الله ومشيئته أن يجعل الغلام مهتديا هاديا دالا على الله.
- ليست العبر بمن سبق وعمر في زمرة المؤمنين، بل بمن صدق وآثر الدار الآخرة.
- مات الغلام لتعيش أمة، ليقضي الله أمرا كان مفعولا.
- سادية أهل الكفر بادية في تعذيب المؤمنين، ونشرهم.
- عناية الله بادية في حفظ أوليائه من أهل الإيمان، كما أنّ صبر المؤمنين على التعذيب استوجب أن يربط الله على قلوبهم.
- عاقبة كلّ متجبر أن ينتهي عاجزا مخذولا، فقد انتصر دين الغلام على دين الملك.
- العمل الصالح من إبراء المرضى وغيره كان مدخلا للدعوة إلى الله، فالمحتاج أقرب من الله من غيره.
- استعانة الظلمة بمن يثبت أركان عروشهم، دليل على ضعف بنيانهم الذي بنوا.

**رابعا/ المنظور السنني لقصة الساحر والغلام والراهب والملك:**

حدثنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن ملك من الأمم السابقة، ولفظ الملك تغلب عليه دلالة الفساد والاستبداد والانفراد في القرارات وإلزام الرعية بها، وهذا ما حدثنا القرآن عنه على لسان ملكة بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[29]، وما يؤكد هذا الفساد أنّ هذا الملك اتخذ السحرة أعوانا لتثبيت عرشه وموالاة حكمه.

وهنا تحضر سنن التنازع في المصالح والمنافع، وهي من صميم سنن الطبائع والغرائز. فكما أنّ للباطل أعوانا فالحق لابدّ له من أهل ينصرونه، وهذا ما يمثله الراهب الذي كان في طريق الساحر فأعجب به الغلام، هذا التحيز للراهب العابد: فطرة أصيلة في الإنسان ولأن عبادة الله وتوحيده غاية وجود الإنسان على الأرض، فقد سخر الله للغلام معلما عابدا، وسخر للراهب داعية ينشر علمه، وسخر للأرض خلفاء موحدون، وسخر للحق أعوانا كما للباطل أعوانا.

زادت الحيرة والانجذاب بالغلام بعد عقد المقارنة بين الرجلين: الساحر والراهب وإعمال العقل، وهذا من صميم سنتي الآفاق والأنفس. لكن وبعد استفراغ الوسع واشتداد الحيرة وعجز القدرات التسخيرية انتظر الغلام إشارة تأييدية من الخالق العليم. فكان قتل الدابة العظيمة بحق استكمالا لعقد السنن التسخيرية من آفاق وأنفس وهداية وتأييد.

أخبر الغلام الراهب ليكون ردّ هذا الأخير بعظم ما يأتي، وهو يعلم أنّ من سار على نهج سنني أصيل فعال متكامل ومطرد سيحصد لا محالة نتيجة عظيمة، لكن بعظم الأمانة والمسؤولية تكون المشاق. وقد كان الراهب على علم بحجم الابتلاء في طرق استخلاف الغلام، فقد قال له: "إنك ستبتلى...". ومادامت جذوة الإيمان متوقدة في قلب الغلام حبّا لله وإفرادا له بالعبودية والربوبية، فقد أيده الله بإبراء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء. هذا فتح من الله لعبده وقبول خصه به فجعل أفئدة الناس تهوي إليه، من أراذل الناس وسادتهم فهذا جليس للملك قد وعده بهدايا كثيرة إن أنجز وعده وأشفاه من عماه ورد عليه بصره.

ربما كان فتح الله للغلام يتحول إلى فتح استدراج وابتلاء وعذاب لو أنّ نفسه وقلبه تعلقا بالدنيا ومتاعها الزائل وأحبها بدلا عن تعلقه بالله. بهذا لم يحد الغلام عن المقصد

الكلي من وجوده ووجود أيّ إنسان، هو عبادة الله وحده ودعوة الناس إليها. ودليل ذلك أنه لم ينسب الشفاء لنزقه وعلمه بل هو من الله وليس منه إلا الدعاء لمن آمن بالله.

وبدأت المدافعة بين الحق والباطل تظهر أكثر حين أعلن جليس الملك إيمانه بالله فكانت إيذانا ببداية الحرب التي يراد منها إزهاقا للباطل أو اجتثاثا للحق من أصله، وأبرز تجل لذلك تعذيب الجليس والراهب وشقّ رأسيهما، وهذا يبين مقدار حقد أهل الباطل على دين الله، ومقدار صدق الرجلين وتعطشهما للشهادة وثباتهما على الحق.

خاف الملك أن يقتل الغلام بنفس التعذيب الذي سامه الراهب والجليس، خوفا وطمعا، خوفا من تمرد الناس على ملكه فالظلم مؤذن بخراب العمران، وطمعا في تراجع الغلام عن دينه الحق عله يكون لملكه معينا ونصيرا.

حاول صحب الملك التخلص من الغلام بعد رميه من فوق الجبل، كما حاول فريق ثان أن يغرقه في وسط البحر، معتمدين سنة كونية مفادها أنّ الرمي من الجبل يفضي للموت، وهم النفر الأقوياء وهو الغلام الضعيف، لكن الله عطل هذه السنة بتأييد منه وبدعاء من الغلام، فاهتز الجبل واضطرب القرقور وانكفأ، وكلّ مرة كان يهلك من كان مع الغلام ويعود هو سالما معافى معتزا بدينه مؤكدا قدرة القادر سبحانه في دفاعه عن الذين آمنوا، مبرزا ضعف حيل ملك لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرّا فكيف يستحق أن يعبد من دون الله من كان هذا شأنه. كما في ذلك دعوة مضمرة لمراجعة النفس والعودة إلى الدين الحق، كما أنها رسالة وعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

كم كان استقواء الغلام بربه وعجز الملك بنفسه، واستمر ذلك حتى اللحظات الأخيرة من حياة الغلام. فالقتل هو الآخر كان بشروط المقتول ووسائله، أن يجمع الناس شهودا على ظلم المِلكِ وقتل الموحدين، ويرميه بسهم من كنانته فهو بذلك اتبع سنة كونية فالرمي بالسهم موجب للقتل، لكن هذه السنة متعطلة ما لم تكن بشروط الغلام المؤمن بعد أن يسمي القاتلُ اللهَ تعالى معترفا بربوبيته. وقد كان في ذلك نفخا في جذوة الإيمان وإسماعا لفِطَرِ الناس، وتأكيدا أنّ الباطل زهوقا والعاقبة لمن اتقى.

نفذ الملك شروط الغلام المؤمن لينال هدفه، نعم قُتِلَ الغلام لتحيا دعوة، لتحيا أمة بعد أن تعلمت معنى التعلّق بالله ورفض الظلم والاستعباد، فعبودية الله تعالى حفظ لإنسانية الإنسان، فكلما تعلق القلب بالله تحرر من عبودية الغير وحقق منتهى الكرامة الإنسانية وارتقى فوق عناصر الذل التي ظل أسيرا لها.

صحيح أنّ الملك الظالم قابل إيمان الناس بالتنكيل والتعذيب والإحراق وهو ابتلاء عظيم ليميز الله الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب.

فكما للباطل صولة فللحق صولات، هذه سنة الله الماضية في النصر والهزيمة، ولم يكن ابتلاء الناس على يد الملك الظالم إلا سنة من الله لاستخراج عبودية الله وإظهار صدقهم وأهليتهم لإعمار الأرض واستحقاق شرف الخلافة فيها، وقد عبر الجمع عن محبة الله الصادقة فبذلوا أرواحهم في ذلك راضين بقدر الله المعطي المانع، يقينا منهم أنّ مدافعة الباطل أقل ثمنا من الركون إليه، عاشوا مع الله فأبدلهم سبحانه ثباتا على المكاره ولذة التعلق به، فالسعادة والشقاء منشؤها القلب. وقد اتصلت قلوبهم بالله عبودية ومحبة صادقة وإيثارا لحبه على باقي المحبوبات، آنئذ لم يعد للألم في سبيل الله أثر. فلم يتردد أحد إلا امرأة غلبت عليها عاطفة الأمومة وهي سنة إلهية لا تطاق، لكن تأييد الله جاء من قريب فنطق الرضيع مثبتا أمه ومعها كلّ متردد للمضي قدما في سبيل الحق.

صحيح أنّ الملك الظالم قتل وأحرق وفتن، كلّ هذا من سنن الله في الدعوات، فلابدّ من بلاء وأذى في النفس والمال وصبرا ومقاومة حتى لا تبقى بقية من جهد وطاقة، لكيلا يكون النصير رخيصا والدعوات هزلا. لكن لا ننسى أن الذي جعل الابتلاء سنة وامتحانا وتمييزا للمؤمنين جعل أخذ المسيئين والنكال بهم سنة لا تتبدل ولا تحيد. قال تعالى يحدثنا عن بعض ما جاء في القصة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[30].

وإجمالا فالقصة حمالة دلالات سننية عميقة، كان حال الناس أول الأمر، كما تخبرنا القصة، يسوده انتصار للباطل على الحق، وبالتالي انعدام العبودية والتوحيد في الأرض، هذا أورث الناس خوفا دائما واستعبادا بعضهم لبعض، ومنه انحدرت كرامة الإنسان حدّ عبودية الملك. فصارت الخلافة في الأرض تسلطا وتجبرا وهيمنة، فغابت بذلك وظيفة الإنسان في الأرض من توحيد وعبودية وخلافة وعمران، ولم يحقق مصيرا أخرويا. كما أنّ الحاكمين استفادوا من بعض ما في سنتي الآفاق والأنفس من توظيف التجارب والأخذ بأسباب تثبيت الملك، محاولة تعليم الغلام السحر كي يخلف كبير السحرة بعد موته. وفي مقابل ذلك فقد كان الحق ضعيفا ليس له أعوانا يجاهرون به، وقد كانت تكلفة الركون للظلمة أكبر فأورثت الناس ذلا، لكنّ الغلام سار على نهج سنني أصيل متكامل وفعال قوامه التجديد والمدافعة. أمّا التجديد فكان مركزه النفس أولا، فلم يسر الغلام على دأب بقية الرعية بل حاد بنفسه إلى سبيل الحق بحثا وثباتا ودعوة، وأمّا المدافعة فقد رافقت أطوار دعوته دفعا للجهل والسحر والاستعباد والذل والاستكبار. وإحقاقا لنور الإيمان والتوحيد وإعدادا لحاضنة الإيمان الصابرة على البلاء الثابتة على الحق.

**خاتمة البحث:**

تخلص قصة الملك والساحر والراهب والغلام إلى خلاصة تدعو إلى الفرح بالله ونصره وتزيد في اليقين بموعوده سبحانه. فقد استبدلت العبودية تحررا والذلّ عزا والخوف أمنا والهزيمة نصرا وتأييدا، واستحق الغلام، كلّ مؤمن مخلص لله، شرف الاستخلاف في الأرض وعمارتها، فدالت دولة الحق وتحققت سنة النصر والتمكين، ويبقى النصر أفضل جائزة قد يحوزها أهل الصبر والثبات.

**قائمة السنن الإلهية الواردة في القصة:**

- سنة الاستخلاف وما يدور في فلكها: فتوحيد الله وعبوديته كان هو الباعث على كلّ السنن، فقد أسر الراهب بالغاية من الوجود في حين جهر بها الغلام ودعا إلى تحقيق العبودية لله تعالى.

- سنة الله في الأسباب والمسببات: فالملك قد سعى لتثبيت عرشه، وقد كانت وسيلته لذلك أن يصطفي أنجب وأذكى غلام يتعلم السحر. وفي الآن نفسه فقد استفرغ الغلام وسعه في الدعوة لتوحيد الله. فلما عجزت الأسباب، جاء التأييد الرباني وهي سنة إلهية.
- سنّة الله في اتباع هداه واتباع الهوى. وقد تمثل اتباع الهوى في القصة قيد الدرس، في شخص الملك الذي استعبد الناس من دون الله، ومقابل ذلك فقد كان الغلام والراهب هاديان ومهتديان.
- سنّة الله في التدافع بين الحق والباطل: وقد مثل الحق الغلام والراهب وجليس الملك، فيما مثل الباطل الملك وأعوانه. فقد دافع الغلام الجهل والسحر والاستعباد والذل والخوف...
- سنة الله في الفتنة سنة الابتلاء والتمييز والتمحيص للمؤمنين: فقد ابتلى الله الراهب وجليس الملك والغلام والناس جميعا فصبروا، وهذه السنة تقود لسنة التمحيص فالتمكين والاستخلاف في الأرض الذي تحقق لعباده الصابرين. فقد ابتلي المؤمنون في النفس كما هو الحال مع الغلام والراهب، والنفس والمال مثلما هو بيّن مع جليس الملك. وهذا ما تقابل به كلّ الدعوات.
- سنّة الله في الظلم والظالمين: فعاقبة الظلمة خسرا، والقصة شاهدة على ذلك، فقد تحولت عزة الملك إلى ذلّ. سنة الخوف حيث صار الملك الظالم نفسه أشد خوفًا، وقديمًا قالوا إن الله يقيم دولة العدل ولو كانت كافرة ولا يقيم دولة الظلم ولو كانت مسلمة.
- سنة الله في الاختلاف والمختلفين: فرغم أنّ الملك وجليسه اشتركا الكفر كما كانا في بحبوحة عيش، إلا أنّ مصيريهما اختلفا فعاند الملك وكابر وجحد واختار الغواية، لكن الجليس صدق فكان له سبيل الهداية.
- سنة الله في النصر والهزيمة: كان النصر أول الأمر حليف الملك لأنّه أخذ بأسباب النصر، لكنّه وقد صار ظالما بل متألها يستعبد الناس فقد ذاق طعم الهزيمة. وفي مقابل ذلك فقد عاشت الرعية هزيمة مادامت مستكينة موالية للظلم والظلمة، لكن باتخاذ أسباب النصر تحقق لهم ذلك.

- سنّة الله في الاستدراج والإملاء: وهذا ما كان عليه الملك ومن شاركه ظلمه، فقد أملى لهم الله واستدرجهم، أمهلهم لكنه لم يهملهم، فجعل لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق.
- سنة التسخير وما يدور في فلكها: فقد جاء تسخير الراهب للغلام تربية وتعليما ودلالة على الله، وكان الغلام مسخرا للدعوة إلى الله. في حين كان الساحر مسخرا لتثبيت عرش الظلم.
- سنة التغيير: فقد تغير حال الرعية من الخوف والقهر وضيق الدنيا وعبودية العباد، إلى عز وسعة ورفعة في عبادة رب العباد. في مقابل ذلك فقد تحول سلطان الظلم إلى وهن وعيشه إلى كدر.
- سنة الأجل: مهما بدت سطوة الظلم فحبله قصير، وأجله قريب.
- سنة المداولة: دالت الأحوال، فصار الظلم عدلا، وحلّ الحق بديلا عن الباطل، والتوحيد محل الشرك والأوثان.
- سنن كونية تعطل بعضها فصار الرمي من الجبل الشاهق غير مميت، كما أنّ الإلقاء في البحر لا يفضي إلى الغرق، وهذا من تمام دفاع الله عن الذين آمنوا وهي سنة إلهية. في حين تحققت سنة الرمي بالسهم المؤدي للقتل، بعد أن حلّ الأجل وتحققت الحكمة.

## الهوامش والإحالات

(1)– أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (قص)، م5، ص 11.

(2)– سورة القصص، الآية 11

(3)– سورة الكهف، الآية 64.

(4)– سورة يوسف، الآية 3.

(5)– الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3 1978، ج2، ص 311.

(6)– ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، دار الكتب العلمية، ط سنة، 2000، ج6، ص/ 101.

(7)– محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط2010، ج7، ص73.

(8)– إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغة والآداب، دار العلم للملايين، ط1998، ج2، ص98

(9)– الدكتور طاهر حجار، الأدب والأنواع الأدبية، دار طوق النجاة، بيروت، ط2004، ص 9.

(10)– عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، ط1999، ص 14.

(11)– كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار اقرأ د ط، د ت، ص 459.

(12)–سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة ط3، 1413 هـ 1995 ص171

(13)– محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3 1965، ص 127

(14)– أنظر: مأمون فريز جرار، خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية ط1، 1988، ص 113.

(15)– سورة النجم، الآيتان: 3 – 4

(16)– ابن فارس (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، باب سن: 61،60/3.

(17)– الراغب الأصفهاني(502هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، ط دار القلم، كتاب السين: 504/1.

(18)– ابن منظور(811هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، باب السين: 223/13، 225، 227.

(19)– تفسير المنار: 115/4.

(20)– أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتخريج: محمد عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت: 3/2.

(21)– مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية، 69/13.

(22)– سيد قطب، في ظلال القرآن، 479/1.

(23)– محمد أحمد الغمراوي، في سنن الله الكونية، ط1، سنة 1936.

(24)– أحمد محمد كنعان، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، 52.

(25)– حسين شرفة، سنن الله في إحياء الأمم، 57.

(26)– مقالة في تعريف السنن للدكتور رشيد كهوس.

(27)– زيدان عبدالكريم، السنن الإلهية، 16–17.

(28)– الحويني الأثري أبو إسحاق، صحيح القصص النبوي، مكتبة الصحابة، جدة– الشرفية، الطبعة الأولى سنة 1411هـ، ص11/10.

(29)– سورة النمل 34

(30)– سورة البروج 1 – 10